الصهيونية من زاوية التحليل النفسي

هل تعاني اسرائيل من عقدة الاثم والنزعة الانتحارية ؟

خالد قشطيني

من الامور التي طالما اشار اليها العرب وشكوا منها المواقف والمعاملات الاستثنائية التي حظيت بها اسرائيل . انه امر اكدت عليه اسرائيل وشددت على حقها في المعاملة الخاصة . وسواء جاءت الادبيات من قلم يهودي او غير يهودي ، صهيوني او غير صهيوني ، فلا نلبث في مطالعاتنا للمشكلة اليهودية حتى نتعثر بكلمات « الاستثنائي » « انفرادي » ، « وحيد » ، « خاص » ، « شاذ » . وهي كلمات تنجمع بسهولة في العبارة الدارجة في العيادات الطبية والنفسية : « حالة غير اعتيادية » .

وعندما نفكر بتعريف عملي للحالة غير الاعتيادية فيمكننا القول انها الحالة التي لا تستجيب لاساليب المعاملة والعلاج الاعتيادية . واذا شئنا البحث عن مثل تاريخي فهو المسألة اليهودية التي فشلت في حلها كافة المحاولات العسكرية والسياسية والاجتماعية والدينية من عهد بختنصر الى عهد لينين واخيرا بن غوريون . وقد شهد العالم على عهد الاخير فشل المحاولة الصهيونية في حل المشكلة وتحويل اليهود الى مجموعة كغيرها من الناس ، مجموعة غير شاذة .

ويعطينا الانفلاق الذي صاحب النزاع العربي الصهيوني جانبا آخر من الانفلاق غير الاعتيادي الذي ميز المصير اليهودي . بالطبع يعزو الصهاينة ذلك الى تصلب العرب وعنادهم مستفيدين من سكوتهم على الحقائق . ولكن الوثائق والتصريحات التي جاءت في السنوات الاخيرة كشفت عن سلسلة متواصلة من المحاورات بين زعماء الجانبين للوصول الى تسوية وتعطينا تعهدات الملك فيصل بن الحسين مثلا شائعا لاستعداد الجانب العربي . كما كشف المعتدلون في الحركة الصهيونية والمنشقون منها ان قادة المنظمة كانوا هم الذين انتكصوا عن المحاولات(١). واتفق الجميع على ان حرب ١٩٦٧ اعطت تل ابيب احسن فرصة لانهاء النزاع . واستمر اولئك المتفائلون بعد خيبتهم بالامس يتفاءلون الان من محاولات كيسنجر . بيد ان غيرهم ممن لم يصل تفاؤلهم هذا الحد ، يئسوا من مواقف الحكومة الاسرائيلية ورأوا القبر الذي تحفره اسرائيل لنفسها مشيرين الى الطريق الانتحاري الذي سيؤدي اليه .

لقد نظر البعض بتحفظ الى ما كتبناه قبلا(٢) عن التوسع الاسرائيلي كجانب نفسي من العقدة الانتحارية لاسرائيل . لقد لاح لهم تشاؤميا و« غير ماركسي » . بيد ان الايام التي مرت كشفت لا عن تصاعد مد ثوري او ظهور جيل تقدمي متفهم وانما عن استقطاب يميني وجيل متشبث بالعنصرية والمدفع . ولم يجد المراقبون في الاخير غير الجري في فيافي النفس بحثا عن تفسير لما عز تفسيره بالمفاهيم الاعتيادية . ونشير هنا الى مثل هذه التحولات في كتابات شخص ثائر مثل اكيفا اور .